

# أثر مقاصد الشريعة في تعميق الوعي الحضاري

د. مسفر بن علي القحطاني

رئيس قسم الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الملك فهد للبترول والمعادن

المقدمة :

تعيش الأمة الإسلامية تقارباً عظيماً مع الأمم والثقافات العالمية الأخرى نتيجة التطور الهائل في وسائل الاتصال وأدوات التواصل المعرفي ، وأصبحت حضارات الأمم الأخرى بما لها من تأثير إعلامي وهيمنة فكرية واقتصادية وسياسية تستحوذ على مجريات التغيير والتأثير في مجتمعاتنا الإسلامية من خلال المد العولمي بكل أدواته المعاصرة ، فبرزت في الأمة أجيالاً انبهرت بالحضارات والقيم الغربية على وجه الخصوص ، وضعف الأثر الديني والقيمي في أنفسهم فكان لزاماً أن تقوم المؤسسات العلمية والاجتماعية بإعادة التأهيل لعقل المسلم والحفاظ على دينه وقيمه بالعودة الصادقة الواعية إلى الرسالة الحضارية للإسلام والتي يمكن أن تقدم دوراً رائداً في بعث الأنفس والعقول نحو مدارج التحضر وال عمران البشري من جديد .

والوعي الحضاري لم يحظ منذ زمن باهتمام معرفي وتأصيلي لمفاهيمه و أدواته التنفيذية سواء كان هذا الاهتمام من خلال التدريس أو التصنيف أو التثليل على واقعنا المعاش ، وأهم منحي لرفع مستوى الوعي الحضاري لدى مسلم اليوم وتأهيل ثقته بدينه كعلاج لكل أزمات المجتمع والحياة ؛ هو بالعودة إلى مقاصد التشريع الإسلامي وإعادة قراءة الأحكام الفقهية من خلال هذه المقاصد .

محاور البحث :

وقد رغبت أن اكتب في هذا الموضوع الذي جعلته مشروعاً لي أسعى في العمل من أجل تعريف

الناس به تصنيفاً وتدريسياً . ومفردات هذا البحث هي كالتالي :

- تمهيد حول مقاصد الشريعة الإسلامية وأهميتها .
- المقصود بالوعي الحضاري .
- اثر الوعي المقاصد في بنية العقل المسلم .
- مشروع الوعي الحضاري في إطاره المقاصدي .

- تمهيد حول مقاصد الشريعة الإسلامية وأهميتها .

مقاصد الشريعة هي المعاني والأهداف الملحوظة للشرع في جميع أحكامه أو معظمها وهي الغاية التي من أجلها وضعت أحكام الشرع .  
وقد ثبت بما لا يجد مجالاً للشك<sup>(1)</sup> أن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً<sup>(1)</sup>.

إما يجلب النفع لهم أو لدفع الضرر والفساد عنهم ، كما دل عليه استقراء الشريعة في جميع تصرفاتها بما يثبت أنها وضعت لمصالح العباد ، كقوله تعالى : [رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ] <sup>(2)</sup> وكقوله تعالى : [ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ] <sup>(3)</sup> .  
ومن استقراء علل الأحكام المعروفة أو أدلة الأحكام المشتركة في العلة تبين له كذلك أن العلة تلك بمعناها العام هي مقصد الشارع ومدار أحكامه . كما في قوله تعالى بعد آية الوضوء : [ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ] <sup>(4)</sup> ، وقوله تعالى في آية الصيام : [ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ] <sup>(5)</sup> وقوله تعالى في الصلاة : [ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ] <sup>(6)</sup> .

إلى غيرها من الحكم والغايات المناطة بالأحكام ، يقول الإمام الشاطبي رحمه الله : «وإذا دل الاستقراء على هذا وكان في مثل هذه القضية مفيداً للعلم فنحن نقطع بأن الأمر مستمر في جميع تفاصيل الشريعة»<sup>(7)</sup>.

وهكذا يوجد في كل حكم أمور ثلاثة :-

1- الوصف الظاهر المنضبط وهو العلة .

2- وما في الفعل من نفع وضرر ويعبر عنه بالمصالح والمفاسد أو حكمة التشريع .

3- وما يترتب على التشريع من جلب منفعة أو دفع مضرة ويسمى مقصد التشريع<sup>(8)</sup> .

وهذه سمة ملازمة لكل أحكام الشرع ، فما من حكم إلا وقد قرّر لرعاية مصلحة أو درء مفسدة ، وإخلاء العالم من الشرور والآثام ، مما يدل على أن الشريعة تستهدف تحقيق مقصد عام ، ألا

---

(1) الموافقات 2 / 9 .

(2) سورة النساء : آية : 165 .

(3) سورة : الأنبياء : آية : 107 .

(4) سورة المائدة : آية : 6 .

(5) سورة البقرة : آية : 183 .

(6) سورة العنكبوت : آية : 45 .

(7) الموافقات 2 / 13 .

(8) انظر : مقاصد الشريعة لابن عاشور ص 20 - 22 ، وأصول الفقه الإسلامي للزحيلي 2 / 1018 .

وهو إسعاد الفرد والجماعة ، وحفظ النظام وتعمير الدنيا بكل ما يوصل البشرية إلى أوج مدارج الكمال والخير والمدنية ، فالتشريع كله جلب مصالح ، فما طلبه الشرع محقق للمصلحة إما عاجلاً أو آجلاً ، والمنهيات كلها مشتملة على المفاصد والمضار .

فإذا كانت مقاصد الشريعة بهذا الشمول والعموم من الهيمنة على أحكام الشريعة وارتباط التشريع بها في كل جزئياته . كانت معرفتها بالتالي أمراً ضرورياً على الدوام ولكل الناس . فالعامي يلحظ بها حكمة التشريع وأسرار الأمر والنهي مما يزيد يقيناً وإيماناً وعلماً وعملاً . والفقيه يراعي مقاصد الشرع عند الاستنباط وفهم النصوص والنظر في أحكام الشرع ،؛ فإذا أراد معرفة حكم واقعة من الوقائع احتاج إلى فهم النصوص لتطبيقها على الوقائع وإذا أراد التوفيق بين الأدلة المتعارضة استعان بمقصد التشريع . وإن دعت الحاجة إلى بيان حكم الله في نازلة مستجدة عن طريق القياس أو الاستحسان وغيرها تحرى بكل دقة أهداف الشريعة ومقاصدها . وهكذا لا تنقضي الفوائد والأسرار التي يجنيها الفقيه والمجتهد من مراعاته لمقاصد الشريعة عند بحثه ونظره في الأحكام<sup>(9)</sup> .

وهذا ما دعا الشيخ عاشور رحمه الله إلى تأليف كتابه القيم ( مقاصد الشريعة الإسلامية ) حيث قال في مقدمته : ” هذا كتاب قصدت منه إلى إملاء مباحث جلييلة من مقاصد الشريعة الإسلامية والتمثيل والاحتجاج لإثباتها لتكون نبراساً للمتفقيين في الدين ومرجعاً بينهم عند اختلاف الأنظار وتبدل الأعصار ، وتوسلاً إلى إقلال الاختلاف بين فقهاء الأمصار ، ودربة لأتباعهم على الإنصاف في ترجيح بعض الأقوال على بعض عند تطاير شرر الخلاف حتى يستتب بذلك ما أردناه غير مرة من نبذ التعصب والفيئة إلى الحق إذا كان القصد إغاثة المسلمين ببلالة<sup>(10)</sup> تشريع مصالحهم الطارئة متى نزلت الحوادث واشتبكت النوازل ، وبفصل من القول إذا شجرت حجج المذاهب وتبادت في مناظرتهما تلکم المقانب<sup>(11)</sup> ” (12) .

---

(9) انظر : المقاصد العامة للشريعة الإسلامية د . يوسف العالم ص 106 و107 ، من كتب المعهد العالمي للفكر الإسلامي بأمريكا / الطبعة الثانية 1414هـ ؛ مقاصد الشريعة الإسلامية د . زيد الرماني ص 20 - 29 ، دار الغيث ، الطبعة الأولى 1415هـ ؛ الاجتهاد المقاصدي حجتيه وضوابطه ومجالاته ، د . نور الدين الخادمي ص 58 و 59 من كتب الأمة العدد (65) الطبعة الأولى 1419هـ .

(10) البَلالة : بالضم من الندوة وهو الماء وكل ما يُبَلُّ به الخلق ، والبلة بالكسر : الخير والرزق وجريان اللسان وفصاحته ، انظر : القاموس المحيط ص 1250 .

(11) المقانب : جمع مَقْنَب وهو اسم لجماعة كثيرة من الفرسان أو الذئاب الضارية ، وهو هنا مستعار لجماعات العلماء كما يستعار الفارس الضاري للعالم الفائق . انظر : القاموس المحيط ص 163 .

(12) مقاصد الشريعة ص 5

وهذا المسوّغ لابن عاشور رحمه الله في التأليف في هذا الفن قد سوّغ لأئمة أعلام قبله الإشارة لأهمية هذا الفن والتنبيه على حاجة الفقيه له ، أشهرهم : الإمام الجويني<sup>(13)</sup> رحمه الله ، والغزالي رحمه الله<sup>(14)</sup> ، والعز بن عبد السلام<sup>(15)</sup> وتلميذه الإمام القرافي<sup>(16)</sup> رحمهما الله ، وشيخ الإسلام ابن تيمية<sup>(17)</sup> وتلميذه ابن القيم<sup>(18)</sup> رحمهما الله .

ولكن لما جاء الإمام الشاطبي رحمه الله أظهر هذا العلم وأبرز قواعده وأسهم في تأصيله وبيان أحكامه حتى أصبح كتابة ( الموافقات ) مرجع هذا العلم ومقصد العلماء فيه بالإضافة إلى تخصيصه للمقاصد جزء من كتابة الموافقات لم يسبق إليه أحد ، فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه الله عن المسلمين كل خير<sup>(19)</sup> .

ونظراً لما سبق ذكره من أهمية علم المقاصد الشرعية للمجتهد والناظر في النوازل، أدرجنا هذا البحث ضمن الطرق التي تعرّف الفقيه بأحكام النوازل المعاصرة ، وقد ختمنا هذا الفصل الذي تناولنا فيه طرق التعرف على النازلة بهذا البحث نظراً لأهمية معرفة المقاصد واعتبارها وعدم الخروج عما يدفعها ويناقضها وذلك في جميع الطرق المعروفة لأحكام النوازل سواء كانت الأدلة أو القواعد أو التخريج على أقوال أئمة المذاهب .

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله في وجوب موافقة قصد المكلف من عمله قصد الشارع سواء كان متعلماً أو مجتهداً : ” قصد الشارع من المكلف أن يكون قصده في العمل موافقاً لقصده في التشريع والدليل على ذلك ظاهر من وضع الشريعة.. والمطلوب من المكلف أن يجري على ذلك في أفعاله ولا يخالف ما قصد الشارع“<sup>(20)</sup>

---

(13) انظر : البرهان 2 / 810 و811 ، 911 – 923 .

(14) انظر : المستصفي 2 / 285 – 315 ، شفاء الغليل ص 161 وما بعدها .

(15) انظر : كتابه ( قواعد الأحكام في مصالح الأنام ) وكذلك كتابه ( مختصر الفوائد في أحكام المقاصد ) .

(16) انظر : الفروق 1 / 118 و 2 / 32 وما بعدها . شرح تنقيح الفصول ص 391 .

(17) انظر : مجموع الفتاوى 11 / 354 و 20 / 583 ، 32 / 234 وغيرها .

(18) انظر : شفاء العليل ص 400 وما بعدها ، مفتاح دار السعادة 2 / 408 ، إعلام الموقعين 3 / 9 وغيرها كثير .

(19) انظر بيان أهمية الموافقات : نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي للريسوني ص 93 ، الشاطبي ومقاصد الشريعة للعبودي ص 97 – 116 .

(20) الموافقات 3 / 23 و 24 .

يقول الشيخ عبد الله دراز<sup>(21)</sup> رحمه الله في بيان موافقة المجتهد في عمله لمقصد الشارع: «أما بالنسبة للمجتهد بوجه خاص ؛ فإن عليه أن يحدد المقصد الشرعي في حكم كل مسألة على حده ليتمكن من تبيين صحة أو دقة اندراجها في المقاصد العامة للتشريع التي اتجهت جملة التكاليف إلى تحقيقها اعتباراً للجزئي بالكلي، وهذا لون من الجهد العقلي الاجتهادي»<sup>(22)</sup>.

فهذا النظر المقاصدي من المجتهد يعتبر ضابطاً لكل أنواع الاجتهادات التي تستنبط بها الأحكام ولعلنا من خلال المطالب القادمة أن نسلط بعض الضوء على دور المقاصد الشرعية في تعريف المجتهد بأحكام النوازل المعاصرة .

- المقصود بالوعي الحضاري :

من المقرر أن الله عز وجل كرم الإنسان على سائر خلقه بالعقل المدرك والروح الواعية وجعله محور الرسالات السماوية وميزه في الخلق والخلق، قال الله تعالى: "ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم

---

(21) هو الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن حسين دراز ، حفظ القرآن وابتدأ تلقي علومه على والده وعمّه ثم انتقل إلى القاهرة فأكمل دراسته في الأزهر ، وكان من أساتذته فيه كبار علماء مصر آنذاك ، كانت له اهتمامات بالشعر والأدب إلى جانب علوم الشريعة توفي بالقاهرة عام 1932 م .

من مصنفاته : تعليقاته على كتاب الموافقات للشاطبي ، انظر ترجمته : الفتح المبين 3 / 173 .

(22) حاشية الموافقات 3 / 24 .

في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً<sup>23</sup> وانطلاقاً من هذا التشريف جاء التكليف الرباني للإنسان بمهمة العبادة لله عز وجل والعمارة للأرض وأي خلل في أداء الإنسان لهذين الأمرين تصبح حياته مضطربة قلقة وعيشه في ضيق وضنك.

وبناءً على ما سبق ذكره من تمهيدٍ نُسلمُ بحقائقه ونشهد بوقائعه .. فإننا نجد أن المجتمعات في مسيرتها التاريخية إنما تتطور وتنمو وتقوى بفعل الإنسان ونضجه وتمام وعيه بهدفه الحقيقي في الحياة وبإعماله سنن القوة والنصر والتمكين في الأرض.. ولا تنهار الأمم والمجتمعات أو تضعف وتتلاشى إلى العدم أحياناً إلا بسبب غياب أو انحراف معنى ذلك الوجود الإنساني.. وهذا هو سرّ الحضارة عند قيامها أو انهيارها .

ومن أجل تكيف هذا القصد وبيان أهمية هذا الوعي الحضاري يجدر بنا أن نسقطه على واقع أزماننا الراهنة التي تعيشها مجتمعاتنا الإسلامية من جرّاء تلك الحوادث الإرهابية وذلك التطرف الفكري المأزوم و الترددي المدني في وسائل النهوض الحضاري لنقف على حقيقة الخلل الواقع ولا نتشاغل بالعرض عن توصيف المرض .. إن الفترات الماضية بحوادثها الحالية التي مرت بالأمة ألقت في روعنا نمطاً من التفكير جعلت آخر ما نفكر فيه عند حدوث أزمة ما أن نلوم ذاتنا أو نبادر في إصلاحها , بل العادة ما نهمّش تأثير أنفسنا فيما يحدث بنا من مشكلات ؛ مع أننا نؤمن " أن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"<sup>24</sup> ونقرأ قوله تعالى: " أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير"<sup>25</sup> .. إن أزمنا الراهنة في جميع المجالات الحياتية سواء كانت أمنية أو فكرية أو إقتصادية أو غيرها هي (أزمة وعي) في فهم الدين وفقه التدين وخلل في معرفة الفرد بواجبات وحقوق الانتماء للمجتمع وإدراك رسالة الإسلام الحضارية للعالمين. بالإضافة إلى تلك العشاوة الزمنة التي أفقدتنا رؤية المدخل الحضاري بالولوج في أزقة الوهن والولوغ في حضارات الوهم والعيش في وهـد الماديات .

إن الوعي الحضاري الشامل لحاجات الإنسان والمجتمع هو رهان المستقبل للأمة المسلمة مهما بلغت من ذبول مادامت الأمة تملك نبع الحياة وأكسير النصر .. ومع هذه الأهمية القصوى للوعي الحضاري .. لا بد من تحرير هذا المصطلح و بيان مفهومه وحقيقته ليتضح المقصود منه ويتمهد فهمه للتطبيق والعمل ..

<sup>23</sup> – سورة الإسراء 71 .

<sup>24</sup> – سورة الرعد 32 .

<sup>25</sup> – سورة آل عمران 165 .

فر(الوعي) من المصطلحات التي شاع استعمالها نتيجة للتطور الواسع في استخدامها كما يظهر في مجالات شتى خصوصاً في القضايا الفكرية والثقافية.

وبالرجوع إلى أهل اللغة في بيان معنى الوعي.. يقول ابن فارس: "الواو والعين والياء: كلمة تدل على ضمّ الشيء. ووعيتُ العلمَ أعيه وعياً . وأوعيت المتاع في الوعاء أعيه.."<sup>26</sup> وهذا ما نجده أيضاً في قوله تعالى: "وتعيها أذن واعية"<sup>27</sup> وقوله: "وجمع فأوعى"<sup>28</sup> وهي هنا بمعنى الجمع والحفظ .

وفي مرحلة لاحقه صارت الكلمة تستخدم بمعنى الفهم وسلامة الإدراك وكان علماء النفس في الماضي يعرفون الوعي بأنه: "شعور الكائن بما في نفسه، وما يحيط به"<sup>29</sup> ومع تقدم العلم وتعقد المصطلحات والمفاهيم أخذ مدلول (الوعي) ينحو نحو العمق والتفرع والتوسع، ليدخل العديد من المجالات النفسية والاجتماعية والفكرية. ويمكن ضبط معناه بأنه " الإدراك العقلي الواضح بمتطلبات العمل الناجح " وبالتالي فإن أي مشروع إنساني لا بد أن يسبق بتفكير موضوعي يضمن سلامته وتوافقه مع سنن الحياة . و الوعي المجرد من العمل -في وجهة نظري- سفسطة وخيال .

أما مصطلح (الحضارة) فهو من المصطلحات التي تختلف مدلولاتها من ثقافة إلى أخرى ومن تداولات تحكمها البيئات المختلفة.

فالحضارة في اللغة العربية مأخوذة من الحاضرة وهي ضد البادية وفي الإنجليزية (civilization) تعود إلى الجذر اللاتيني (civites) وتعني المدنية، فالمعنيان متقاربان في اللغتين من حيث الجذر ،<sup>30</sup> إلا أن ابن خلدون وهو من أوائل من استخدم هذا المصطلح جعل الحضارة هي: " غاية العمران و نهاية لعمره وأما مؤذنة بفساده"<sup>31</sup> فالحضارة عند ابن خلدون تعني غاية المبالغة في التحضر و نهاية عمر الترف المادي المؤذن بعدها بالانحطاط ، وهذا المعنى يختلف مع المعنى الذي يقصده المعاصرون.

<sup>26</sup> - معجم مقاييس اللغة 6/124

<sup>27</sup> - سورة الحافة 12

<sup>28</sup> - سورة المعارج 18

<sup>29</sup> - انظر : تجديد الوعي لبيكار ص6

<sup>30</sup> - انظر : المعجم الوجيز ص 157 اعداد مجمع اللغة العربية في القاهرة .

<sup>31</sup> - مقدمة ابن خلدون 2/36.

يقول ديورانت: " الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وتتألف من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون ، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق".

فمعنى الحضارة عند ديورانت هو كونها حضارة حادثة على الإنتاجية بصرف النظر عن مستواها. أما تايلور فنجد أنه لا يحدد مستوى الحضارة بحد سوى التقدم اللامتناهي. حيث يقول في تعريفها: "هي درجة من التقدم الثقافي تكون فيها الفنون والعلوم والحياة السياسية في درجة متقدمة"

إلى غير ذلك من التعريفات التي تتفاوت حسب الخلفيات المعرفية والتاريخية والعقائدية في النظر إلى الحضارة ، وبشكل عام هناك من وسع مفهوم الحضارة ليشمل كل أبعاد التقدم وهو اتجاه بعض المفكرين الفرنسيين وهناك من جعله قاصر على نواحي التقدم المادي مثل أصحاب الفكر الألماني وهناك من جعله مرادفاً لمفهوم الثقافة .

أما المفكر الإسلامي مالك بن نبي فقد استطاع أن يعطي مفهوماً ديناميكياً للحضارة يتحدد في ضرورة " توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفرادها في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه"<sup>32</sup> .

فحقيقة الحضارة عند مالك بن نبي وكثير من المفكرين هي أعم من العمران المادي ؛ وهذا ما دعا البعض للتمييز بين مصطلح (الحضارة) ومصطلح (المدنية) باعتبار الاشتباه اللغوي بينها ، فالمتحضر هو الذي يسكن الحواضر، والتمدن هو الذي يسكن المدن، لكن حين وجد كثير من المفكرين والباحثين أن ارتقاء حياة الإنسان ذو بعدين أساسيين : بُعد شكلي وبعُد داخلي. رأوا أن يطلقوا مصطلح (المدنية) على ما يتم من ارتقاء في مضامين الحياة الحضرية، ومصطلح (الحضارة) على الارتقاء الشكلي الذي يتمحور حول وسائل العيش وأدوات الإنتاج وطريقة تنظيم البيئة – وليس هذا بمطرد عند الكل – .

وفي المذهبية الإسلامية التي ننظر من خلالها للكون والحياة هناك اهتمام بمسألة التفريق بين المدنية والحضارة.

فقد ذم الله عز وجل أمما وأقواماً قطعوا أشواطاً في العمران، واستخدام الموارد، وتصنيع الأدوات، لكن عتوهم عن أمر الله تعالى وفساد مضامين نظمهم العمرانية ، تسبب في هلاكهم وإبادتهم. وفي هذا يقول الله عز وجل: "أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذي من



قبلهم كانوا أشدّ منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءهم رسلهم بالبينات فما كان ليظلمهم ولكن أنفسهم يظلمون"<sup>33</sup>

وقصّ علينا ما بلغه قوم ثمود من الارتقاء والقوة : "واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبؤاكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعنوا في الأرض مفسدين"<sup>34</sup> لكن القوم كفروا وأعرضوا عما قاله لهم أخوهم صالح فكانت النتيجة: "فأخذهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين"<sup>35</sup>

وفي المقابل فإن المدينة المنورة التي شهدت أول مجتمع إسلامي ، لم تكن في أوضاعها المدنية تتجاوز ما عليه قرية صغيرة في أي بلد من بلدان العالم الثالث اليوم. لكن ذلك المجتمع كان حسب المقاييس المدنية - وهي شبه عامة - يشكّل قمة التمدن والرقى الخلقي والسلوكي والعلائقي. ففي المجتمع المدني كانت الأهداف الكبرى واضحة، والغايات مشرقة ، وقد بلغ من وضوحها وسيطرتها على النفوس أن كان المسلمون - حتى الأطفال - يتسابقون إلى نيل شرف الشهادة على نحو لم يسبق له مثيل في التاريخ، وكان من المسلمين من يعمل ويجتهد ليتصدق ببعض أجره في المساء ، وبلغ الناس من النقاء وحب التطهر أن اعترف أمام النبي صلى الله عليه وسلم بعض الرجال والنساء بارتكاب جرائمهم مطالبين بكل إصرار أن يتزل عليهم عقوبة الدنيا ولو كان بالرجم بالحجارة حتى الموت حتى يلقوا الله تعالى وهو عنهم راضي.. وبلغت شفافية الحكم والدولة أن كان مرتب الخليفة لا يزيد على نفقة الطعام مع كسوة قليلة .. وخلا ذلك المجتمع من مظاهر تسلط الدولة فالقضاء والسجون ورجال الشرطة ، أمور هامشية إن لم تكن معدومة ومهما بيّنا درجة المدنية التي بلغها المجتمع الإسلامي آنذاك : فإن الحقائق تظل أكبر من الكلمات.<sup>36</sup>

وخلاصة القول أن مقصودنا من استخدام كلمة (الوعي) في سياق المفهوم الحضاري الشامل للمدنية ؛و يمكن بيان مفهومه العام بأنه: " أدراك الفرد ومؤسسات المجتمع المختلفة بمسؤولياتهم الكبرى في بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة والسعي في دفع عملية النهضة والتقدم المعنوي والمادي من خلال إصلاح الفكر والسلوك والواقع".

33 - سورة الروم 9.

34 - سورة الاعراف 74

35 - سورة الاعراف 78

36 - انظر: تجديد الوعي لبقار ص 120-126، مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي لبقار ص 353 .

## المسلم الوعي المقاصدي . . وأثره في بنية العقل

اتجه عدد من المفكرين والنقاد خلال العقود الثلاثة الماضية نحو نقد العقل المسلم ومحاولة تحليل الخلل الذي نجم عن حالة الوهن العام في أجزاء عدة من الأمة الإسلامية والارتخاء الحضاري في القيام بدورها الشهادي على العالم، تحقيقاً لقوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) [سورة البقرة 143].

فالعقل المسلم الذي سبق أن تفتق عن دور نهضوي وتغييري واضح في بنية المجتمع العربي ها هو يعود لمشرط النقد والفحص العلمي للعلات التي ألت به من تداخل الوحي الغيبي بالاجتهاد البشري، والشرعي بالعرفي، والعقلي بالذوقي، وتداخلت أدوات البيان السمعي من القرآن والسنة بالعرفان الصوفي، والبرهان الفلسفي بالغيبي، مما أدى إلى حالة من المراوحة الميدانية كتبها عن الإنجاز الحقيقي ذلك الجدل العقيم في المقولات الكلامية والآراء الفقهية، وتعصب ذميم للمذاهب والفرق والجماعات الدينية، واستبداد سياسي تداخلت فيها حظوظ السلطة ومغالبات الفقهاء وتنافسهم على المناصب والقضاء.

هذه الإشكاليات وغيرها ساهمت بذبول العقل الواعي وتضاءلت بالتالي روح الاجتهاد الفقهي، وأدى هذا الفتور إلى غياب التجديد ودعائه عن الساحة الفكرية والعلمية.

لذلك كان المبرر قوياً لمعاودة النظر في الخلل المؤدي لتلك النتائج السالفة والسالبة على المستوى الفردي والمجتمعي. ولعل الدور الذي قدمه الجابري أو أركون أو شحرور أو حسن حنفي أو جمال البنا وغيرهم من النقاد المعاصرين كان محاولة جادة للبحث عن المنهجية الإصلاحية المثلى لنقد العقل وتحريره من شوائبه المتراكمة من عقود، لكن الأدوات المعرفية والمنهجية العلمية في النظر والحكم لأولئك الباحثين كانت مستمدة من بيئة علمية أخرى ليست في مستوى القدسية والعصمة كما هي في البيئة العلمية عند المسلمين والمعتمدة على منهجية الاستدلال القائمة على نصوص شرعية قاطعة من القرآن أو السنة، أو قواعد أصولية منبثقة عن هذا الوحي قد تختلف دلالاتها وحجيتها ولكن تبقى أقرب للضبط والتحديد، وأقصد بتلك البيئة المختلفة روحاً وشكلاً هي بيئة البحث المعرفي التي تم استيرادها من الخارج بأدواتها النقدية التي جاء بها فلاسفة التنوير لنقد السلطة الدينية وتفكيك الكهنوت النصراني ومحاولة إرجاع العقل لدوره المسلوب. فكما أن بعض الظواهر والنتائج متماثلة بين واقع الدين النصراني في أوروبا أثناء العصور الوسطى وما حصل للمسلمين بعد القرن الخامس الهجري، إلا أن هناك فروقاً واضحة وكبرى تختلف في سببها وجوهرها بين الواقع المسلم والواقع النصراني.

إضافة إلى أن تحليل الواقع المنهجي للعقل المسلم اتجه لدى أولئك النقاد من خلال نظرات جزئية للتراث الديني المستمد من الوحي دون الوصول للعمق الحقيقي الذي يمثل الأصول والمنطلقات والقواعد التي تبني عليها تلك المنهجية.

واعتقد أن الجابري في مشروعه الكبير (نقد العقل العربي) قد ساهم بشكل كبير في تحليل ذلك الواقع إلى حد ما . لكن مساهمات الآخرين كانت أقل جهداً وأقصر نظراً بل بعضها أكثر تطرفاً عن المنهج الإسلامي فتوصلت بالتالي إلى نتائج فلسفية غير واقعية مازالت خاصة بدوائر بعض المثقفين من التيار العقلائي دون أن تشمل جميع أطراف الفقه والاجتهاد الديني لدى المسلمين.

ومن خلال هذه المقدمة أرى أن مشروع نقد العقل المسلم وبنية التخلف التي أصابته تحتاج إلى مزيد نظر وكشف عن مواضيع الصحة والضعف ومحاولة فهم العلل التي أصابت منهج النظر والاستدلال وتحليل الخطاب الإسلامي ومدى موائمته للمتغيرات الراهنة من حيث كونه تجسيداً لتزليل النصوص والقيم الدينية في واقع الحياة ومدى قدرتها في المعالجة والتبيين والإصلاح والتغيير.

وعند التأمل في هذا الواقع والنظر في مشاريع العمل لإصلاح هذا الواقع الفكري يُرى أن هناك غياب حقيقي في أعمال دور المقاصد الشرعية في المساهمة في معرفة الخلل أو استشراف الحلول من خلالها. والذي دعاني للبحث في المنهج المقاصدي وتعليق الأمل في دوره في إحياء العقل المسلم عدة أمور أوجزها فيما يلي:

1- أن مقاصد الشريعة هي الرابط الجامع لكل فروع التشريع في جميع المناحي العبادية والعادية والاجتماعية والقضائية وغيرها، فهي لا تخرج عن كليتها ومقاصدها الثابتة العائدة إلى الضرورات الخمس من حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال، وهذه الكليات العامة والأهداف الرئيسية للتشريع حاکمة للفروع وليست محكمة بها، ويسير الاجتهاد الفقهي في فلکها و لا تخضع لأفلاك المجتهدين أو الفقهاء، يقول الإمام الشاطبي رحمه الله في وجوب موافقة قصد المكلف من عمله قصد الشارع سواء كان متعلماً أو مجتهداً: « قصد الشارع من المكلف أن يكون قصده في العمل موافقاً لقصده في التشريع والدليل على ذلك ظاهر من وضع الشريعة.. والمطلوب من المكلف أن يجري على ذلك في أفعاله ولا يخالف ما قصد الشارع»<sup>(37)</sup>. كذلك هي أمر مشترك لا يمكن أن يتصور فرد أو مجتمع يمكنه أن يتخلى عن حفظها ومحاولة ديمومتها في شأنه الخاص والعام، فهي مقصودة ومرادة لكل الناس لا يختلف في ضرورتها أحد، والتشريع الإسلامي تشكل

(37) الموافقات 3 / 23 و 24 .

في أحكامه وآدابه على حفظها من جهة الوجود ومن جهة العدم. يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: «فلم يعتمد الناس في إثبات مقصد الشارع في هذه القواعد»<sup>(38)</sup> على دليل مخصوص ولا على وجه مخصوص ، بل حصل لهم ذلك من الظواهر والعمومات ، والمطلقات والمقيّدات ، والجزئيات الخاصة ، في أعيان مختلفة، ووقائع مختلفة في كل باب من أبواب الفقه ، وكل نوع من أنواعه ، حتى ألفوا أدلة الشريعة كلها دائرة على حفظ تلك القواعد ، هذا مع ما ينضاف إلى ذلك من قرائن أحوال منقولة وغير منقولة»<sup>(39)</sup>.

فبما أن للمقاصد هذا الشأن العالي والأهمية الواضحة في الضبط والتحديد كان الرجوع لها في البحث عن الخلل أمر مطلوب عقلاً كما أن اعتبارها في إنشاء الأحكام وبناء التشريعات الحياتية أمر لازم شرعاً وألاً كانت الجزئيات خلاف كليتها والمآلات خلاف الاجتهادات ولأبين لذلك بأمثلة واقعية.

فالذين حمّلوا نظام الحدود والعقوبة في الإسلام أنه هدم للحريات وقسوة على المخطئين لم ينظروا إلى المجتمع كوحدة كاملة وأن استقرار نظامه وصالح العيش فيه لا يمكن إلا من خلال عقوبات رادعه وزواجر ناهية تحفظ للناس جميعاً حقوقهم وحرياتهم. مع أن آيات الحدود والعقوبات لا تمثل من مجمل أحكام الشريعة إلا العشر وألاً فبناء الإنسان وإصلاح باطنه يحتل المساحة الأكبر من التوجيهات الشرعية. وكذلك من أباح الربا كضرورة اقتصادية معاصرة لم ينظر إلى آثاره الأخلاقية والاجتماعية وهي من الكليات التي تتناغم في حفظ الفرد والمجتمع دون رعاية جزء منه وإهمال باقيه.

2- أن اعتبار المقاصد الشرعية كقضايا كلية تضبط الفهم وترسخ الأهداف الحقيقية من الوجود الإنساني ، والكيفية التي بها يعيش ويتعامل مع غيره ومع ظروف الحياة ونواميس الكون؛ تؤكد أن اعتبارها كفيل بحفظ بنية العقل من الشطط أو الوهم، وكفيل أيضاً بتنظيم العقل وترتيب أولوياته في الذهن ، لذلك قام الإمام الطاهر بن عاشور رحمه الله وقد علّم بهذا الدور الكبير الذي تؤسسه وتعمقه المقاصد في بنية العقل إلى محاولة ضبط المقاصد حتى لا يختلط المقصد بالوسيلة ولا الكلية بالجزئية. فجعل رحمه الله للمقصد المعبر أربعة شروط لا بد من توافرها وهي:

<sup>(38)</sup> المقصود بالقواعد هنا : الضروريات والحاجيات والتحسينيات ، انظر : حاشية الموافقات 2 / 79 .

<sup>(39)</sup> الموافقات 2 / 82 .

أ. الظهور: بمعنى أن يكون المقصد واضحاً لا تختلف أنظار المجتهدين في الاتجاه إليه وتشخيصه بعيداً عن كل التباس أو مشابهة، وذلك مثل اتفاقهم على تشريع القصاص لحفظ النفوس.

ب. الثبوت: بمعنى أن تكون تلك المعاني مجزوماً بتحققها أو مظنوناً بوجودها ظناً قريباً من الجزم.

ج. الانضباط: أي أن يكون للمقصد الشرعي حدّ معتبر وقدر معين لا يتجاوزه، فلا يؤدي إلى وقوع الحرج المرفوع شرعاً ونفور البشر من التشريع ولا تقصير عنه فيؤدي إلى ضعف الوازع الديني في النفوس وفقدان الشريعة هيبتها وسلطانها على الخلق.

د. الاطراد: بمعنى أن لا يكون المعنى مختلفاً باختلاف أحوال الأفكار والقبائل والإعصار<sup>(4)</sup>.  
فهذه الشروط والضوابط المحددة للمقصد المعتبر هي لاشك ضوابط محددة للتفكير الموضوعي والاستدلال الصحيح والفهم الشامل الذي يحتاجه العقل الواعي في دوره الحضاري المنشود.

3- أن الفطرة السليمة -وهي مشترك إنساني- نزاعة لتلمس القوى الكبرى في الكون؛ لتدين لها بالخضوع، والطاعة أمراً ونهياً دون أن يكون مبتغاهما من وراء ذلك تلمس منفعة مادية معينة أو غير معينة، وبهذا تعتبر الرواق الذي يتحرك من خلاله قانون الاستجابة بين السماء والأرض<sup>(5)</sup>.

لذلك ذهب الإمام ابن عاشور رحمة الله إلى أن الفطرة هي القاعدة التي شيد عليها صرح المقاصد الشرعية، ويجب أن تكون الأساس الذي ينطلق منه المكلفون حتى تكون مقاصدهم من وراء تصرفاتهم موافقة لمقصد الشارع يقول رحمه الله: "نحن إذا أجدنا النظر في المقصد العام من التشريع نجده لا يعدو أن يساير حفظ الفطرة والحذر من خرقها واختلالها، ولعل ما أفضى إلى خرق عظيم فيها يعدّ في الشرع محذوراً وممنوعاً، وما أفضى إلى حفظ كيانها يعدّ واجباً، وما كان دون ذلك في أمرين فهو منهي أو مطلوب في الحملة، وما لا يمسه مباح، ثم إذا تعارضت مقتضيات الفطرة ولم يمكن الجمع بينها في العمل يصار إلى ترجيح أولاهما على استقامة الفطرة، فلذلك كان قتل النفس أعظم الذنوب.."<sup>(6)</sup>

<sup>(41)</sup> انظر: مقاصد الشريعة للطاهر بن عاشور ص 50-52.

<sup>(5)</sup> انظر: المقاصد العامة للشريعة لعز الدين بن زغيبه ص 78.

<sup>(6)</sup> مقاصد الشريعة لابن عاشور ص 59، 60.

فمن هنا نستطيع القول أن الفطرة هي الموجة للإنسان تفكيراً وتصرفاً وأخلاقاً وهي السمة الرئيسية للدين ووصفه العظيم: "فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين العظيم" [سورة الروم 30].

فمقاصد الشريعة متسقة مع الفطرة السليمة غير مخالفة لها وليس هذا الاتساق في النوازع والمنافع المادية فقط؛ بل له آثاره على الفكر والحريات المتعلقة بحياة الإنسان. وهذا الجانب المهم والمتعلق بضبط السلوك الباطني بالفكر والعقل الواعي لم يعط حقه من التنظير والتأصيل مع أن له آثاره في حياة الإنسان سواء كانت إيجابية بإعماله والانسحاق في موارد، أو سلبية في إنكاره ومخالفة مزرعه الفطري المكوّن لحقيقة الفرد الإنساني، ولعل الدور المقاصدي أن يُعيد الاهتمام بهذا الجانب العرفاني ويضبطه من الانحراف أو التعدي في تقديره واعتباره.

1- المتأمل في مصنّفات مقاصد الشريعة يرى أن هناك دور إصلاحي قام به أولئك المصنّفون لما تحمّلوا هذا الجانب من التأليف والعودة إلى كليات الشريعة بتجديد الصلة بها وإحياء دورها المتجدد في النظر والوقائع المختلفة، وشواهد أحوال أولئك المجددين تثبت أن المقاصد الشرعية هي الحامل على التغيير نحو الأفضل والتصحيح نحو الأولى والأهم والإمام الشاطبي -رحمه الله- في مصنّفه العظيم الموافقات يعتبر من رواد الإصلاح الفكري في دوره في رد الخلاف الفقهي إلى مقاصد الشريعة الكلية وترتيب الذهنية الفقهية وتنقية علوم الاستدلال من شوائب الإغال الفلسفي والكلامي. كما أن دور الإمام الطاهر بن عاشور وعلال الفاسي لا يختلف عن سابقهما، فقد جعلوا من مقاصد الشريعة محور التجديد الذي دعوا إليه وكذلك منهاجهم الإصلاحي الذي بشروا به سواء كان على مستوى التشريعات النظامية أو المحافظة على دور الفقه في علاج مستجدات الحياة.

لذلك أرى أن المنحى الدلالي للمقاصد فيه روح التجديد والتصحيح للمسار المنحرف للفقه أو الفهم للعلوم الشرعية، فلا ينبغي أن فهمه عند النظر في إعادة ترتيب بنية العقل المسلم أو البحث عن مكان الخلل التي أدت ضعف الدور المناط به في الإصلاح والتغيير.

2- الواقع الذي تمر به الأمة الإسلامية والمتمثل بصور التفرق والضعف والجهل المتراكم في روعها المعاصر؛ يحتاج إلى عودة عاجلة إلى الكليات والمقاصد العامة، لأن عصور الضعف والانحطاط أغرقت أفرادها في الهوامش البعيدة عن مكان البناء والإنتاج؛ لذلك يأتي دور المقاصد في تجسيد العودة إلى الأصل وترك الهوامش التي أثقلتنا في

تعقيدها المثالية. كذلك تنحو المجتمعات الضعيفة إلى الكماليات والإسراف في استعمالها والإشباع في تعاطيها ونشرها , بينما الردّ إلى مقاصد الشريعة يعيد الاعتبار إلى فقه الأولويات ويثبت في الذهن ميزان المنافع أو المضار بدأً بحفظ الضروريات التي لا يقوم مجتمع إلا بها في كل شؤونها الحياتية والفكرية ثم الحاجيات ثم التحسينات, والإخلال في هذا إخلال في بنية المجتمع والأفراد.

كما أن عصور الضمور الفكري تهنمك في بحث الجزئيات الهامشية وتشقيق الفروعيات الغير واقعية , مما يعمّق جهل الناس بها ويوسع الهوة بينهم وبين المعارف الأصيلة ؛ وبالتالي تتشكل في المجتمع طبقة وحيدة ومحصورة تمتلك حق العلم والفهم والتفسير , وهذا هو منحى الكثير من الفلاسفة الأقدمين والمعاصرين في تعقيد العلوم وحصرها في افهامهم الخاصة ووضع الجسور التي لا تسمح لغيرهم أن يجتازها , ولعل مقاصد الشريعة تعيد للشريحة الأوسع في المجتمع أن تعلم الكليات الظاهرة الواضحة وتكشف إغراق المتفلسفة في مسارات أبعد ما تكون عن هموم المجتمع وقضاياه الرئيسية، بل أرى أن الحديث عن المقاصد قد يساهم في بناء الوحدة الفكرية التي هي أساس الوحدة المجتمعية ويخفف من الصراعات المذهبية والجاذلات الخلافية كونها تأتي بالعودة إلى المفاهيم المشتركة والقضايا العامة التي تحمل في طياتها مشاريع لا تنقضي من العمل والبناء والإصلاح.

3- وأختم في ذكر مبررات العودة إلى مقاصد الشريعة في كشف الخلل الفكري في بنية العقل المسلم؛ بالتأكيد على دور الوعي المقاصدي في حفظ العقل من الشطط أو الانحراف بتأسيس قواعد الكشف عن الموهوم والمظنون والمردود والمرجوح. وهذه القواعد هي في بنيتها معايير عقلية راجعية إلى مقاصد الشرع وكلياته.

يقول العز بن عبد السلام -رحمة الله- من أن تصرفات الناس العامة لا تخلو في كونها من قبيل المصالح أو المفسد ولضبط هذه الأفعال قال -رحمه الله-: "الأفعال ضربان: أحدهما المصالح وهي أقسام:

(أحدهما) ما هو مصلحة خالصة من المفسد السابقة واللاحقة والمقترنة و لا يكون إلا مأذوناً فيها إما إيجاباً أو ندباً أو إباحة (القسم الثاني) ما هو مصلحة على مفسدة أو مفسد وهي ما دونه.(القسم الثالث) ما هو مصلحة مساوية لمفسدته أو مفسده. ( القسم الرابع) ما هو مصلحة مساوية لمصلحة أو مصالح فإن أمكننا الجمع جمعنا وإن تعذر الجمع تخيرنا، ومهما تمحصت المصالح قدمنا الأفضل فالأفضل، والأحسن فالأحسن ولا نبالي بفوات المرجوح.

الضرب الثاني : المفسد وهي أقسام:

(أحدها) ما هو مفسدة خالصة لا يتعلق بها مصلحة سابقة ولا لاحقة ولا مقترنة، فلا تكون إلا منهيًا عنها، إما حظراً، وإما كراهة. (القسم الثاني) ما هو مفسدة راجحة على مصلحة أو مصالح وهي منهيّة. (القسم الثالث) ما هو مفسدة مساوية لمصلحة أو مصالح، فإن أمكن درء المفسدة وجلب المصلحة أو المصالح قلنا بذلك وتركنا المفسدة وأثبتنا المصلحة أو المصالح. وإن تعذر الجلب والدرء ففيه نظر. (القسم الرابع) ما هو مفسدة مساوية لمفسدة أو مفاصد فإن أمكن درء الجميع درأناه وإن تعذر تخيرنا ومهما تمحصت المفاصد درأنا الأردل فالأردل والأقبح فالأقبح<sup>40</sup>.

ونظراً لصعوبة الترجيح في المصالح والمفاصد المتعارضة سطر لنا كذلك علماء القواعد والفقه قواعد فقهية تساعد على الترجيح بين المصالح والمفاصد المتعارض، يحفظها الفقيه ليفتي بها ويحفظها غيره ليتزن على وفقها، ومن أمثال هذه القواعد: درء المفاصد مقدم على جلب المصالح - تفوت أدنى المصلحتين لحفظ أعلاهما - المصلحة العامة تقدم على المصلحة الخاصة - الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف - الضرر لا يزال بمثله - يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام - الضرورات تبيح المحظورات - الضرورات تقدر بقدرها - إذ تعارضت مصلحتان أمام الفرد، فعليها أن يقدم المصلحة المتعلقة بأمر ضروري على الحاجي والحاجي على التحسيني وإذا تعارضت مصلحتان في نفس الرتبة تقدم مصلحة حفظ الدين على حفظ النفس والنفس على العقل والعقل على النسل والنسل على المال. وإذا تعارضت مصلحتان في نفس المرتبة وتعلق بنفس الأمر تقدم المصلحة العامة التي تتعلق بالجموع على المصلحة الخاصة - المتعدي أفضل من القاصر والفرض أفضل من النفل - لا عبرة بالظن البين خطؤه - ويغتفر في الوسائل ما لا يغتفر في المقاصد. إلى غير ذلك من القواعد المنظمة للعقل والمؤسسة لمنهج التفكير الموضوعي القائد نحو مدارج الرقي المعرفي والمنتج للعميران الحضاري .

## مشروع الوعي الحضاري في إطاره المقاصدي

أولاً: المقصود بالوعي الحضاري في هذا المشروع :

(7) قواعد الاحكام في مصالح الانام ص 56 .



1- المراد بالوعي الحضاري الذي هو مجال عمل المشروع يعني: "إعادة تشكيل الذهن وتعميق التصور وتنمية الفكر نحو الرسالة الحضارية للإسلام بكل شمولها للمجالات العبادية والعمرائية وعمومها للزمان والمكان والأفراد".

فالمشروع هو أشبه بخطاب لعقل المسلم يعيد فيه قراءة الشريعة الإسلامية التي جاءت بالإشهاد على الناس من خلال سماحة الشرع وتقدمية أحكامه ودوره في علاج مشكلات المجتمعات والنهوض بأفراده .

2- إن أي تحضر لأمة من الأمم لابد أن يسبق بفكرة تنطبع في أذهان أصحابها إلى درجة الاعتقاد الجازم المفضي الى البناء المشترك وال عمران الحضاري , يقول مالك بن نبي : "إن حضارة ما؛ هي نتاج فكرة جوهرية تنطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر ؛الدفعة التي تدخل به التاريخ " وهو ما أثبتته توينبي من دور عظيم للفكرة وبالذات الدينية من أثر في تاسيس الحضارات . لذلك كان التركيز على إعادة إظهار هذه الفكرة بتوعية المسلمين بها وتعميقها في أذهانهم وأنفسهم كما نطق بها القرآن الكريم في قوله تعالى : " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله " و في قوله سبحانه : " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا " وهو الدور الذي قام به عليه الصلاة والسلام في إحداث التحضر العظيم الذي أسسه في المدينة وانطلق إلى أصقاع الأرض , وهذا الوضوح في الفكرة نطق بها ربعي بن عامر إجابة على سؤال رستم له عن سبب هذه الحركة التغييرية التي تقومون بها , فقال له ربعي : "الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى سعة الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة".

3- الوعي هو الوقود الحقيقي لحركة العمران التي انطلقت في الأمة منذ قرون , ولا بد من إشعال الوعي الحضاري الذي يدركه كل مسلم وينطلق من خلاله إلى الإصلاح والتغيير , فالمشروع يهدف إلى الإسهام في تنوير الوعي بهذا الدور وإصلاح الذهن لهذه الانطلاقة الحضارية .

ثانياً :دواعي المشروع :

1- المدّ العولمي بكل آلاته الإعلامية والثقافية و الاقتصادية والسياسية , والذي بدأ يغزو كل مجتمع ويذيب كل الثقافات والفروقات تحت تأثير أنموذج غربي ينبغي أن يسود لوحده ويؤثر في الجميع , وبالتالي ظهرت أجيال من المسلمين منسلخة عن شريعتها منبهرة بعجل السامري , تحتاج إلى إفاقة واعية تبحث في دينها العظيم عن مكامن ثباتها واعتزازها وعلوها على سائر الأمم بدلا من الانهزام النفسي الذي تعيشه أجيال اليوم .

2- الضعف والانحطاط في البلاد الإسلامية في جميع الميادين الحياتية , مما جعل هناك حالة يأس في الأنفس من النهوض مرة أخرى , وحالة شك من أن نملك أدوات التحضر المنشود .

3- المحاولات الإصلاحية التي أغفلت التركيز على الوعي الحضاري وكون الإسلام رسالة تحمل الهداية والرحمة والتقدم للكون والإنسان وذلك بالبدء إما بالعمل السياسي المجرد أو العمل التراثي العلمي أو التزكية والتحلية للنفوس والروح أو العمل القتالي كوسيلة للنهوض بالأمة , إلى غيرها من اجتهادات كانت تنحو إلى جعلها هي مدار الدين ومرتكز التغيير , في حين لا يزال الوعي بالشرعية منحصر في تلك الزوايا غافل عن تلك المعاني الأخرى , فالمرحلة الحالية تحتاج إلى زرع الثقة بالدين وترتيب العقل المسلم وتشكيل ذهنه نحو القابلية لهذا التحضر ودفعه إلى ميادينها المتنوعة والمتكاملة كشرعية واحدة لا كمذاهب متفرقة .

ثالثاً: المنطلقات العامة للمشروع :

1- تعميق الوعي بمقاصد الشريعة الإسلامية وربط الأحكام بها وتنبيه المسلم على دورها في توضيح الصورة المتكاملة للدين كونه طريق السعادة في الدارين . وذلك من خلال الميادين التالية :

أ- تعظيم العبودية لله من خلال التدبر في آياته المقرؤة والمنظورة , والتركيز على جوانب العظمة الحقيقية التي تجعل الأنفس أقرب إلى الله في كل حال بدلا من التركيز على الجوانب العلمية في التوحيد أو أسلوب التخويف في الوعظ الذي يجعل الأنفس تمل وتكل وربما تفتقر , وهذا له دور في تنظيم وحدة الفكر والإخلاص والعمل .

ب- التأكيد على المقاصد عند الإفتاء بذكر العلل والحكم من التشريع وقهذيب النفوس بالأحكام , والتيسير ورفع الحرج فيما يغلب فيه الضيق والعنت أو الحاجة والشيوخ مع التدرج بالناس عند المنع واعطائهم البديل المباح عند التحريم , وإدراك المقتي بمهمته في العمران الحضاري المتجدد والمواكب لكل التغيرات الحياتية .

ج- تلقي الأحكام وتوضيحها على أساس الكليات الخمس بحفظ الدين والنفوس والعقل والنسل والمال , وجعل هذه الضروريات الخمس متبلورة في ذهن المسلم ومناهج التغيير في المجتمع .

2 - تعميق الوعي بفقهاء العمران الحضاري . من خلال :

أ- التأكيد على أن وجود المسلم مرتبط بمهمتين : العبادة لله والعمارة للأرض وفق مقتضيات تلك العبودية.

ب- إعطاء العلوم والمعارف والفنون الإنسانية دورها من الاهتمام والتعلم والهيبة وتحقيق التكامل بينها والتوازن في عرضها لبث العمران المادي ونشر أدواته بين المسلمين .

أقدمت إحدى المؤسسات العلمية البريطانية على إقامة معرض علمي تاريخي للتذكير بمآثر المسلمين العلمية التي غيرت وجه العالم حسب عنوان صحيفة الاندبندنت. وقد لخص الكاتب بول فاليلي تلك الإنجازات العظيمة في عشرين إنجازاً ومخترعاً مسلماً لولاها لما كان العالم المعاصر على ما هو عليه من تقدم وحضارة وازهار ورخاء.

هل تعلمون أن المسلمين هم أول من اكتشف القهوة وجعلها مشروباً عالمياً؟ حدث ذلك عندما كان عربي اسمه خالد يرعى أغنامه في منطقة بجنوب إثيوبيا حيث اكتشف أن أغنامه صارت أكثر حيوية بعد تناولها نوعاً من الحبوب، فأخذ بعضاً منها وغلاها ليصنع منها أول مشروب للقهوة. وكان الصوفيون أول من استورد القهوة من إثيوبيا إلى اليمن حيث كانوا يشربونها كي يسهروا طويلاً للتعبد والصلاة. وفي نهاية القرن الخامس عشر وصلت القهوة إلى مكة وتركيا ومن ثم إلى البندقية في إيطاليا. وفي منتصف القرن السابع عشر وصلت إلى إنجلترا بواسطة شخص تركي حيث فتح أول محل لبيع القهوة في شارع لامبارد بلندن. ومن ثم أصبح اسم القهوة بالتركية "كهي" وبالإيطالية "كافا" وبالانجليزية "كافي".

هل تعلمون أن ابن الهيثم عالم الرياضيات والفلك والفيزياء هو مخترع الكاميرا التي تعتبر عماد الحياة الإعلامية الحديثة. وقد اخذت اسمها من كلمة "قمره" العربية وتعني الغرفة المظلمة أو الخاصة.

هل تعلمون أن الفرس هم من طور لعبة الشطرنج إلى ما هي عليه الآن. وأن كلمة "رووك" الانجليزية أي "القلعة" بلغة الشطرنج مأخوذة عن كلمة "رُخ" الفارسية؟

هل تعلمون أن الفلكي والشاعر والموسيقي والمهندس عباس بن فرناس كان قد سبق الأخوين رايت بألف عام في صناعة آلة للطيران؟ وقد طار لأول مرة من على منذنة في مدينة قرطبة مستخدماً عباءة محشوة بمواد خشبية. وقد كانت عباءة بن فرناس أول مظلة في التاريخ. ثم اخترع آلة أخرى من الحرير وريش النسور وطار فيها من أعلى جبل وبقي في الجو لمدة عشر دقائق ثم سقط. واكتشف فيما بعد أن سبب سقوطه يعود إلى عدم صنع ذيل لطائرته.

هل تعلمون أن المسلمين هم أول من طور الصابون الذي نستخدمه اليوم وأضافوا له الزيوت النباتية وهايدروكسيد الصوديوم والعطورات كعطر الزعتر بينما كانت تفوح من أجساد الصليبيين الذين غزوا الأرض العربية روائح كريهة للغاية حسبما يقول مسلمو ذلك الزمان؟

وقد جلب الشامبو إلى إنجلترا لأول مرة شخص مسلم وقد عُنِي فيما بعد في بلاط الملكين جورج وويليام الرابع لشؤون النظافة والشامبو.

هل تعلمون أن جابر بن حيان هو مخترع الكيمياء الحديثة وإليه يعود الفضل في صناعة كل أجهزة التقطير والفلترية والتبخير والتطهير والأكسدة المستخدمة هذه الأيام.

هل تعلمون أن الفضل يعود إلى المهندس الجزائري في تصميم أهم الاختراعات الميكانيكية في تاريخ الإنسانية. فهو الذي صمم أول صمامات عرفها الإنسان وهو الذي اخترع الساعات الميكانيكية وهو أبو علم الآليات والتسيير الذاتي الذي تقوم عليه الصناعات الحديثة. وللتذكير أيضا فهو أول من اخترع القفل الرقمي الذي نراه الآن مستخدماً في الحفائب والخزائن.

هل تعلمون أن أول من صنع المواد العازلة هم المسلمون. وهم الذين ابتكروا الألبسة الخشوة بمواد عازلة التي كان وما زال يرتديها العسكريون.

هل تعلمون أن المهندسين المسلمين هم أول من صمم الأقواس الهندسية التي اخذها عنهم الغرب فيما بعد في علم هندسة البناء، ولولا العلوم الهندسية الإسلامية لما شاهدنا الكثير من القلاع والقصور المنيفة والأبراج الهائلة في الأصقاع الغربية.

هل تعلمون أن كل الأدوات المستخدمة في الجراحة والتشريح اليوم هي نفسها التي اخترعها العالم الزهراوي في القرن العاشر؟ هل تعلمون أن المائتي أداة التي يستعملها الأطباء اليوم هي من تصميم الزهراوي؟ هل تعلمون أنه أول من اكتشف الخيطان المستخدمة في العمليات الجراحية والتي تذوب في الجسم بعد العملية؟

هل تعلمون أن ابن النفيس هو الذي اكتشف الدورة الدموية في القرن الثالث عشر قبل هارفي بثلاثمائة سنة؟

هل تعلمون أن العلماء المسلمين هم أول من اخترع "البنج" أي المخدرات الطبية التي تعطى للمرضى قبل العمليات وهم الذين مزجوا الأفيون بالكحول للغرض نفسه؟

هل تعلمون أن المسلمين هم أول من اخترع الطاحونة الهوائية لطحن الذرة والري؟ ولم تعرفها أوروبا إلا بعد خمسمائة عام؟

هل تعلمون أن أول من اكتشف التلقيح والتطعيم الطبي هم المسلمون وليس باستور الفرنسي؟ وقد أوصلته إلى أوروبا زوجة السفير البريطاني في اسطنبول عام 1724م.

وقد كان الأتراك يلقحون أطفالهم ضد بعض الأمراض المميتة قبل الأوروبيين بأكثر من خمسين عاماً.

هل تعلمون أن الفضل يعود إلى سلطان مصر الذي طلب تصنيع قلم حبر لا يوسخ الأيدي والملابس فجاء اختراع أقلام الحبر الناشف التي تستخدم على نطاق واسع في كل أنحاء العالم الآن؟

هل تعلمون أن نظام الترقيم وضعه الخوارزمي والكندي؟ هل تعلمون أن الخوارزمي هو واضع علم الجبر أيضاً؟ هل تعلمون أن العالم الإيطالي فيبوناتشي هو الذي نقل العلم الحسابي العربي إلى أوروبا بعد أكثر من ثلاثمائة عام على اكتشافه عربياً، والمؤسف أنه معروف في الغرب على أنه مكتشفه لا ناقله؟ هل تعلمون أن عالماً مسلماً هو مكتشف اللوغاريتمات؟ هل تعلمون أن أصل علم المختصرات عربي؟

هل تعلمون أن علي بن نافي الملقب بزرياب هو الذي وضع أسس التغذية الحديثة، فهو الذي جاء من العراق إلى قرطبة بفكرة الوجبة الثلاثية التي تتألف من الشوربا والصحن الرئيسي من اللحم أو السمك ثم الفاكهة والمكسرات؟ وهو الذي طور أيضاً كؤوس الكريستال التي عمل على اختراعها في البداية عباس بن فرناس.

هل تعلمون أن المسلمين هم من وضع علم النسيج والحياكة والسجاد تحديداً بينما كانت أرض المنازل في أوروبا من التراب والسطوح البدائية؟ وقد انتشرت السجاجيد فيما بعد في الغرب انتشار النار في الهشيم.

هل تعلمون أن كلمة "شيك" الإنجليزية أصلها عربي، فهي مأخوذة عن كلمة صك، أي التعهد بدفع ثمن البضائع عند تسلمها وذلك تجنباً لتداول العملة في المناطق الخطرة؟ وفي القرن التاسع كان رجال الأعمال المسلمون يأخذون الكاش مقابل شيكاتهم في الصين المسحوبة على حساباتهم في بغداد. بعبارة أخرى فالمسلمون هم من وضع أسس الاقتصاد المالي.

هل تعلمون أن ابن حزم اكتشف ان الأرض كوكب يدور قبل العالم الغربي غاليلي بخمسمائة عام وأن الفلكيين العرب كانوا يحسبون حركة الأفلاك بدقة متناهية؟ وهل نسينا أن العالم الإسلامي الأدريسي قدم للملك روجر في صقلية الإيطالية كرة أرضية مرسوماً عليها أقاليم وبلدان العالم في القرن الثاني عشر؟

هل تعلمون أن العلماء المسلمين هم أول من استخدم البارود للأغراض العسكرية بإضافة البوتاسيوم له وهم أول من صنع صاروخاً ينفجر في سفن الأعداء عند إصابتها؟

هل تعلمون أن المسلمين هم أول من صمم الحدائق للتمتع بجمال الطبيعة والاسترخاء بينما كان الغربيون يستخدمونها فقط لزراعة الأعشاب والخضار للطبخ؟ هل تعلمون أيضاً أنهم أول من زرع الزنبق والفل الذي يزين حدائق أوروبا هذه الأيام؟

3- تعميق الوعي بالشهود الحضاري من خلال الدلالات اللغوية لمعنى الشهود الذي جاء في الآية في قوله تعالى : " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا " ومن معاني الشهادة :

- أ- أن الشاهد لا بد أن يكون عالما بما يشهد به علما يقنع الآخرين بالحجج والدلائل .
- ب- أن يبينه ويظهره للآخرين .
- ج- تبليغه لمن يحتاجونه و ينتفعون به .
- د- العدل والأمانة في تبليغ الشهادة .

#### رابعاً: آليات تنفيذ المشروع :

- 1- التأليف والنشر .
- 2- الكتابة الصحفية في الدوريات الثقافية .
- 3- الندوات والمحاضرات .
- 4- البرامج التلفزيونية والإذاعية .
- 5- المناهج الدراسية .
- 6- موقع على الشبكة العالمية .
- 7- إنشاء مركز للوعي الحضاري المجتمعي .

#### خامساً: الآثار المتوقعة لنجاح المشروع :

- 1- التقليل من حدة الخلافات والمنازعات والالتفات الى الغايات والاهداف العليا .
- 2- الاعتزاز والثقة بالدور الديني في الاصلاح والتغيير .
- 3- التأكيد على منهجية الاعتدال والشمول في فهم الدين ونبذ التطرف والغلو .
- 4- ابراز فقه العمران الحضاري وأنه نوع تعبد لله عز وجل .
- 5- اصلاح أنماط التفكير وتوضيح فقه التدين .
- 6- قطع الطريق على صور الفصل بين الديني والدنيوي .

